عمالقة الاشجار

للدكتور محمد بهجت

خريج جامعة كاليفورنيا

— ٢ —

حرج ماريبوزا

يقع فى قمة جبال السيبرا على ارتفاع ستة آلاف قدم . سمى كذلك لوجوده بمقاطعة بهذا الاسم . « وماريبوزا » كلمة اسبانية معناها « ابودقيق » وكان اول من لمح رءوس اشجاره عن بعد رجلا يسمى « اوج » Hogg في سنة ١٨٥٥ ولكن رجلا آخر يسمى « جالن كلارك » Galen Clark اكتشفه عام ١٨٥٧ واليه يرجع الفضل فى ذلك . يصل اليه الزائر من طريق ضيقة لا تتسع لأكثر من عربة ، شديدة الانحدار والتعاريج ، تمر وسط غابات كثيفة مكتظة بانواع الصنوبر التى تعطر الجو دواماً . وغالباً ما تكون حافة الطريق هى حافة هوة بعيدة القرار يغطى منحدرها آلاف الاشجار . وكثيراً ما يصادف الانسان قطيعا من الغزلان يعترض الطريق ، ترنو اليه بأعين سوداء كبيرة هادئة ثم لا تلبث ان ترتاع وتقفز فى رشاقة نادرة وتختفى فى ظلمات الغاب . ومن وقت الى آخر تخترق الاذن نغمة حلوة لطير جميل الريش يتفيأ ظلال الأغصان . او يقفز امامك سنجاب صغير يقف على خلفيتيه ويرفع ذيله الطويل المنفوش على ظهره حتى يكاد يلامس مؤخر رأسه ، ينظر اليك لحظة ثم ينقلب راجعا فى سرعة البرق . واحيانا يصادفك دب اسود الفرو لامعه ينظر اليك متكاسلا ثم يدير رأسه الى الناحية الأخرى متباعداً عنك غير عابىء بك .

وأخيرا تنتهي الطريق الى الحرج الذى لا تتجاوز مساحته ميلين مربعين . وهناك يشعر الزائر انه داخل فى معبد فسيح معطر الارجاء ذى عمد هائلة ، لا تستطيع الشمس ان ترسل الكثير من أشعتها الى ارضه لكثافة رءوس الاشجار ، فالظل لذلك وارف ظليل ، والهواء بارد عليل ، واما الصمت فرهيب شامل وما هى إلا برهة حتى تملك الانسان خشية ورهبة فيصمت هو الآخر ويتأمل ! اشجار باسقة تحلق رءوس بعضها فى الجو الى ارتفاع مائة وعشرة من الامتار . ويبلغ قطر البعض الآخر عشرة أمتار !! يرفع الانسان رأسه ليدرك سمو هذه المخلوقات النبيلة ولكنه لا يلبث ان يطأطئه فى خشوع وذهول ، يميد بالحيرة ويضج بالاسئلة . ترى كم من السنين قامت هذه العمد النباتية في مكانها لا تبرحه ، تحمل الثلوج شتاء على اذرعها الضخمة المنبسطة وتحتمل الزمهرير ولطمات البروق وجلجلة الرعود ، وهطول الامطار وتدفق السيول ؟ يقول بعضهم ثمانية آلاف سنة ، ويقول بعضهم اربعة آلاف !! ومهما يكن التقدير فانها ولا شك أسن المخلوقات الحية واعظمها . كيف لا والشجرة « الصغيرة » التى تجاوزت الخمسمائة ربيع لا تزال فى ميعة الصبا ، واما التى سلخت من الزمن ألفى سنة فلا تزال فى سن الكهولة !! إذا نظر الانسان الى شيخ قارب المائة او جاوزها شعر بوقار السن وجلاله ، وخشع لتلك المسحة الهادئة الحزينة ، التى تطبعها عليه يداالهرم . فما بالك اذا نظر الى مخلوق عمر ستة قرون ؟ ومع هذا فلا ترى ضعفا ولا تقوسا ولا تهدما ، بل ترى شموخا وقوة وعظمة . ترى اصلها كأنه أبوالهول ناشبا اظفاره الضخمة فى جانب فريسة هائلة ، ترى التمكن والرسوخ . نعم ان عليها روح الكآبة والحزن ولكنها كالجبار

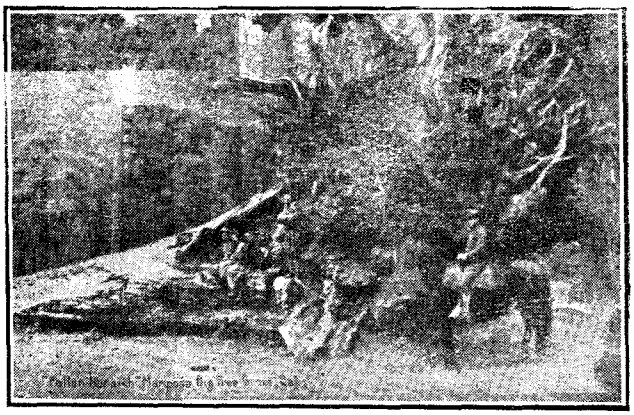

العملاق الممدد او الملك الساقط

المكتئب يرفع رأسه الى السماء فى جمال وروعة ، غير عابىء بما في جنبه من طعنات او فى نفسه من وخزات . وحقيقة ترى بعضها محترق الجانب او القلب غير انها لا زالت حية باسقة تهزأ بكوارث الطبيعة وهوجها ، تطالع فيها رمز الصبر والاحتمال والخلود ، ثم انها كتاب تاريخي ضخم استوعب الكثير من تاريخ القرون ولكن كيف السبيل الى حل رموزه وطلاسمه ؟ هيهات ! تقف صامتة ، تنظر مبتسمة ساخرة ، ولكنها لا تبوح بمكنون فؤادها فكانها حفيظة لسر الدهر

ولكل من هذه العمالقة اسم يعرف به ، فهذه شجرة مارك توين تخلد اسم الكاتب المشهور وهى أطول اشجار العالم إذ يبلغ ارتفاعها ٣٣١ قدما ، وهذه شجرة جالن كلارك مكتشف الحرج وهذه شجرة واشنجطن ، وهذه شجرة غروب الشمس وهى آخرة الاشجار التى تغيب عنها اشعة الشمس . وتلك شجرة الاصطبل

التى تؤوى خمسة عشر حصانا جذعها الأجوف ، وتلك شجرة المنظار التي احترق من جوفها ما طوله خمسون قدما فاصبحت كالمنظار ترى من داخلها السماء . ثم تلك شجرة « واوونا » Wawona — تلك الشجرة العجيبة التى شق فى احشائها طريق فى سنة ١٨٨٠ ارتفاعه ثمانى اقدام وعرضه إحدى عشرة تمر منه عربات الزوار الذين يحجون اليها من انحاء المعمورة . ومع هذا لا تزال حية تضحك من اقزام الانسان الذى اعمل فيها قواطعه ومناشيره وأجرى عليها هذه العملية الجراحية القاسية من غير ما مسكن او مخدر !! هى ارفع من ان تشكو هذا العبث الصغير !! ...

وترى وسط الحرج « العملاق الرمادى » Grizzly Giant وهو من أضخم ما على وجه البسيطة من اشجار ومن اطولها عمرا . يبلغ ارتفاعها ٢٠٤ ومحيطها ١٠٤ اقدام ، رأسها غير كامل لأنه محترق ، ويظهر ان صاعقة انقضت عليه فاطارته . يبلغ سمك قشرها الذى يكسو خشبها نحو ٧٥ سنتيمترا ، والعادة ان يكون لونه لون

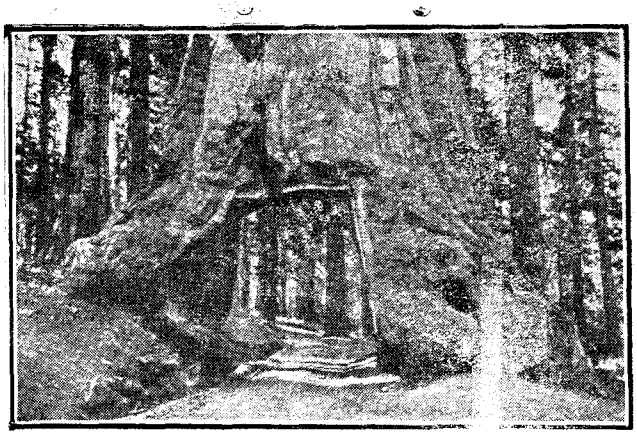

شجرة واوونا يبين بها الطريق التى شقت في اصلها

القرفة ، اما فى هذه الشجرة المعمرة فاللون رمادى يشهد بمعارك الرياح والامطار والشمس وعناصر الطبيعة الأخرى القاسية قرونا طويلة ، واقفة كانها تصارع الزمن بسيف متكسر فهى كالبطل المنهوك المثخن بالجراح تغيب بين اضلاعه النصال والسهام . فمن ذا الذى يرى هذا المخلوق النبيل ولا يحنى رأسه فى خشوع واعظام واكبار ؟ من ذا الذى لا يقف إصلها ضارعا بعد ان يشعر بعظمة الخالق والمخلوق ؟ وسأحاول تصوير ضخامتها بمايلى من الأمثلة :—

١ — إذا وقف عشرون رجلا فى حلقة مقفلة حول أصلها بحيث تتلامس أطراف اصابعهم مع امتداد اذرعتهم فانهم يستطيعون تطويقها تماما

٢ — إذا شق فى اصلها طريق يمكن ان تمر منها مركبتان من مركبات الترام جنبا الى جنب

٣ — إذا امكن ان تقور قاعدتها بحيث تشبه الغرفة استطاع اربعة عشر شخصاً ان يجلسوا على مقاعد حول مائدة مستديرة فى وسطها من غير ما تزاحم

٤ — إذا قطع ونشر خشبها انتجت ما يربو على نصف مليون قدم من الخشب

وبجانب آخر من الغاب يرى عملاق هائل صريعاً ممدداً يسمونه «الملك الساقط» Fallen monarch تقصر دون عظمته وضخامته عمد قدماء المصريين الصوانية المتساقطة فى المعابد . مؤثرة والله رؤية ذلك الطود الأشم بل ذلك الملك منزوع التاج منطرحا على الارض جسما بلا روح - ذلك الطود الذى عاصر الاهرام حيا وها هوذا لا يزال يسابقها فى حلبة العمر إذ يأبى خشبه الاستسلام للعفن وللاضمحلال والفناء مع ان جنبه يلامس الارض منذ مائتى عام !! وقد صورت اكثر من مرة وعليها عربة بستة أحصنة وعدة سيارات وجم غفير من الرجال .

ولعل أهم ما يتساءل عنه الزائر المتحير هو كيفية تكاثر هذه الاشجار وحفظ نوعها . وربما تأخذه الدهشة إذا علم انها تتكاثر من بذرة فى حجم الخردلة !! وتوجد هذه البذرة مع غيرها فى مخروط صغير لا يزيد حجمه على حجم البيضة الكبيرة . وقد يحتوى المخروط على ثلاثمائة بذرة . وتنتج الشجرة عددا هائلا من هذه المخاريط ولكن ما ينبت من بذورها قليل جداً

وقبيل الغروب عندما يتأهب الزائر لمغادرة ذلك المكان الساحر يرى ضربا آخر من الجمال إذ تنفذ اشعة الشمس في حزم عريضة تشق ظلام الغاب الى سوق تلك الاشجار فتضيء جوانبها المغضنة بفيض من النور البديع يشف عن لون محمر يزرى بأجمل ألوان رخام ايطاليا المصقول . أما الجوانب المقابلة فتكون معتمة مصبوغة بلون بنفسجى شفاف .. بعد ذلك ترى نفسك مضطراً الى مغادرة المكان إذ يهجم الظلام سريعاً . فاذا ما خرجت من الحرج الى الطريق استطعت ان ترفع صوتك بالحديث بعد ان كنت تهمس ، ثم تؤخذ بجمال الجبال عند الغروب . عجباً !! كيف يمكن أن تصطبغ رءوس تلك الجبال ومنحدراتها واشجارها بهذا اللون البنفسجى البديع الذى لم يستطع العلم تقليده الى الآن ؟ ... وإن استطاع فاي جن يمكنهم أن يصبغوا به مثل تلك السطوح الهائلة فى ذلك الوقت القصير ؟!! ثم بعد ذلك ايضا تنطبع صور تلك الاشجار العجيبة فى ذاكرتك الى مدى العمر ، وتقف فيها بارزة قوية بحيث تراها وتحسها ونحن اليها وانت فى أى ركن من أركان العالم ؟